

وأوكرانيا الغربية وبدون البلاد الواقعة على سواحل البلطيق . ومع ذلك كانت دولة قوية مؤلفة من مساحات شاسعة اندرج أمراؤها الصغار تحت لواء دوقات موسكو الكبار واعترفوا باندماج ممتلكاتهم في إمارة موسكو . وكان سكانها من الجنود والفلاحين والحرفيين والتجار والكهنة والرهبان . وكانت الأرض تعطي مواسم غنية والشعوب لا تعرف الجوع . وكانت التجارة تجري قصراً مع الشرق حتى وصلت الى بكين البعيدة نفسها واتصلت مع قوافل آسيا الوسطى بواسطة الطرق المائية الكبرى . وعلى رأس الجسر التجاري المذهب الى الشرق كان سوق نيغني نوفورود الكبير الواقع عند التقاء الفولغا بالأوكا . وفي قوانين التجارة وتقاليدها استمر نفوذ التتر العميق . وكان الفلاحون في الشمال احراراً بينما تارجح فلاحو الوسط والجنوب في حالة وسط بين الحرية والعبودية غير قادرين على أن يدفعوا ضرائب ولا حقوقاً إقطاعية . وكان التقليد هو القانون وقلما كان مكتوباً . وكان الأمير وملاكو الأراضي هم أنفسهم القانون في معزل عن مرؤوسيه . وديانة الشعب كانت مسيحية لا تزال متأثرة بالوثنية يضاف اليها إيمان بالخوارق دائم الوجود . وكانت الكنيسة تحت نفوذ آباءها البدنة تقشفية نسكية الى أقصى الحدود تهتم بسر الموت وبمكانة القديس في الحياة الدينية .

ولم تكن ثمة مشاعر فروسية ولا تصرفات مهذبة تغطي الكذب والبهتان . فالشعب من اعلاه الى ادناه كان محتالاً مراوغاً متشدداً ، وفي بعض الاحيان ماهراً واجتماعياً ولكنه بدون حساسية زائفة محروسة صاخبة كان قادراً على القيام بأعمال بربرية نادرة .

ولم تكن مكانة دوقات موسكو الكبار مجرد وظيفة ليس وراءها عمل . فالدوق الكبير كان سيد الجميع وما يملكه كان يملكه عن حق وهو مكلف بأن يحميه بقوة السلاح وبالمهارة والإرهاب . وكان يتخذ مكانه على عرش مرتفع جداً فوق النبلاء ولا يحرم نفسه من المحادثات المرحة ، وهو يضع تاجه ويمارس سطوته في كل مرة يتوجب فيها ان يفرض الخوف والرعب .